الإتصال الأسري وتعزيز قيم المواطنة

دكتورة : سعدي وحيدة
جامعة عنابـة – الجزائر

إن الثقافة الجماهيرية فتحت أعين العالم النامي على أنماط استهلاكية تفوق قدراته الإنتاجية وإمكانيته الاستثمارية والإبداعية على الرغم من الثروات الرابضة في أعماق أراضيه من الخليج إلى المحيط، فشعوب العالم النامي تتعرض بكثافة لشاشات التلفزيون وتتأثر بعمق بالمسلسلات والإعلانات ليتولد عن هذا الانبهار جنون استهلاكي غير مسبوق مصحوبا بدعاية تثير الأحلام والأحقاد ضد الوحدات السياسية العربية من ناحية ثم البحث عن الهوية من ناحية أخرى وعن مكان خاص بهم في التاريخ(1). لقد حولت الثقافة الجماهيرية الشعب العربي الواحد إلى فسيفساء. فالثقافة الكونية أصبحت تطرق أسوار البناءات الاجتماعية وتهدد أساليب الحياة التي طالما تبنتها الجماعات الإنسانية المتفاعلة في ظل أطرها الدلالية الرمزية.

ويغير التلفزيون الوعاء الأوسع لتنشئة اجتماعية موازية لتلك التي نتلقاها أثناء اتصالاتنا الشخصية خاصة الاتصال الأسري، لذلك يحدث التنافر مع القوى الأخرى كالوالدين والمربين وغيرهم من وكلاء التنشئة الاجتماعية لأن نماذج ومعلومات ومعارف جديدة اقتحمت مجالات الخبرة والقيم و الميولوالاتجاهات والمعتقدات (2).

فالتلفزيون والانترنيت لا تتطابق جل مضامينهما مع الواقع الحقيقي بل هي بناءات لواقع وهمية وافتراضية حولت أساليب الحياة الاجتماعية والقيم الحضارية من الاتجاه التقليدي إلى الاتجاه الرافض للبنى القيمية مبشرة بقيم ومعايير جديدة، فإذا تناولنا برامج الأطفال يتبين لنا أنها تساهم بدرجة قليلة في تدعيم وترسيخ القيم التالية:

العدل والقناعة، الإخلاص، الصبر، أهمية الوقت، الإخاء، التواضع، الإحسان للوالدين وللجار، الالتزام بالنظام السائد في المجتمع، حب الوطن، الولاء، وتقدير العمل، وهي قيم مرصوفة بين ثنايا تعاليم ديننا وطقوس مجتمعنا، فالولاء للوطن أو حب الحمى من الإيمان والإذعان للرب، ذلك ما روجت له حلقات الاتصال منذ بدايات التشكل للنسيج الاجتماعي العربي. ولعل السرد الشعبي قصصا كان أو أمثالا يحمل في طياته الكثير من الإشارات للانتماء والولاء والوطن الكبير بمائه وعشبه وهوائه وناره و باستقراره أو بخلله الوظيفي، فاقتناعات الأجداد عززت فلسفة أن الأرض هي الوجود وأن طاعتها وحمايتها والعمل لأجلها هو الاستمرار والحياة، تلك رموز ومعان تفهم من أنماط تفكير تعزز بأنماط رمزية سلوكية قد لا تتردد في جعلها مرادفة للمواطنة اليوم.

I- المواطنة سلوكات اتصالية

إن الإحساس بالمواطنة ينمو من خلال تكريس أهداف الفاعلين الاجتماعيين لخدمة وطنهم الذي يضمن لهم بالمقابل حقوقا سياسية وأمنية وثقافية وصحية، لأن المواطنة مفهوم يتسع ويتغلغل في سلوكات الفاعلين الاتصالية وبنية تفكيرهم المنتجة لمعيار العلاقة بين الفاعل والنظام (الوطن) وما يحيط به من إطار ثقافي قانوني يؤطر ميكانيزمات اندماج المواطن في انشغالات الوطن والحفاظ على مصلحته و بناءاته، فإذا انطلقنا من هذا الإطار المفهمي فإن سبل تنمية وتدعيم مبدأ المواطنة بمختلف معانيها وآداءاتها إنجاز تتضافر لأجله جهود و مسؤوليات كثيرة مرادها هو التناغم بين الحقوق و الواجبات (المواطن و الوطن).

وما يجب الإشارة إليه هو أن المواطنة عملية قديمة حديثة في وقت واحد حيث مارستها الشعوب والحكومات مع أفرادها من أجل تحقيق الارتباط الوثيق بين السلطة والمحكومين من خلال تنمية روح الانتماء للأرض و الشعب الذي يعيش في كنفه ويربى على أرضه، لكن التربية للمواطنة أخذت تستحوذ على اهتمام أكبر بما يشبه الطفرة في الآونة الأخيرة نتيجة للتغيرات الضخمة التي حدثت خلال العقد الأخير والسنوات الأولى من القرن الحادي و العشرين (3).

ويبدو أن المواطنة ترتبط ارتباطا وثيقا بالعولمة بكل تجلياتها وآثارها السياسية و الاقتصادية والثقافية، فإذا كان مفهوم العولمة يشير دائما إلى الصورة المعاصرة للتغيرات البنيوية السريعة فإن مفهوم المواطنة يشير إلى الحماية الاجتماعية وإعادة بناء روح التضامن. (4)

وقد ترتب على هذه العلاقة بين المواطنة والعولمة حدوث تغيرات في مفهوم المواطنة وفي مدلولاته، ففي الماضي كان يقتصر المفهوم على المدلولات القانونية المركزة على الحقوق السياسية و المدلولات القانونية والمدنية وحرية الرأي والتعبير وحرية التنقل وغيرها من الحقوق ثم اهتز المفهوم التقليدي وبرزت الحاجة إلى صياغة جديدة للمفهوم القديم تراعي حاجات المجتمع المدني وما تتضمنه من حقوق والتزامات وأنساق أخلاقية واجتماعية. (5)

وفي ضوء هذا المفهوم الجديد للمواطنة، الذي يشتمل على الحقوق المدنية والقانونية وما فرضته العولمة كظاهرة تهدد المواطنة والانتماء والهوية والخصوصية الثقافية برزت الحاجة إلى ضرورة تضمين أبعاد التربية للمواطنة في المناهج الدراسية والسياسات الاجتماعية للدول النامية، وذلك بغرض تعزيز المواطنة و تنميتها، وتقوية روح الانتماء الوطني والقومي لدى الفاعل الاجتماعي. هذا ما لجأت إليه اليابان في فترة السبعينات حيث حددت وزارة التعليم أهدافا أساسية لتعزيز المواطنة تمثلت في تنمية الوعي باليابان كأمة ذات سيادة وطنية مع تعريف المواطن الياباني بالأدوار التي يمكن أن يساهم من خلالها لإقامة المجتمع الياباني المتميز.

وفي ستينات القرن العشرين كانت غاية انجلترا هي تكوين مواطنين صالحين يراعون قيم المجتمع ويعرفون حقوقهم ومسؤولياتهم وتشجيع الممارسة الفاعلة للمواطنة من خلال اتصالاتهم داخل أنساق مختلفة كالجمعيات التطوعية والمنظمات البيئية ومنظمات حقوق الإنسان .(6) وفي ماليزيا تجسد

مفهوم المواطنة وتحقيقه في فهم وتقدير السمات الثقافية و الاجتماعية لماليزيا وممارسها وتطبيقها في الحياة اليومية العادية وتقدير جهود وإسهامات الأفراد الذين ناضلوا من أجل سيادة البلاد واستقلالها والأفراد الذين أسهموا في تطوير الوطن الماليزي أو بتعبير آخر تقديس الرموز الوطنية كما ثم تحديد خمس قيم للمواطنة متضمنة في منهج التاريخ هي: الإفتخار بكونهم ماليزيين وتكريس روح الجماعة والتضامن والإجتهاد والعمل المنتج والنظام.(7)

II - الاتصال الأسري وتعزيز قيم المواطنة

تساهم الأسرة في تحقيق التربية من أجل المواطنة من خلال اتصالاتها اليومية والمتنوعة لأنها كمؤسسة اجتماعية ثقافية قادرة على بلورة الوعي الانتمائي للمواطن والعبء كبير على هذه الجماعة الأولية في ظل التغيرات الكبرى التي تحدث في القرية الكونية، خصوصا وأن الإحساس بالمجتمع قد انحصر وضعف الشعور بالولاء وهو ما زاد من حجم التحديات التي تعترض مشروع المواطنة بالولاء وهو ما زاد من حجم التحديات التي تعترض مشروع المواطنة بمفهومه الحضاري الآني. فالمواطنة لم تعد مجرد ورقة وهي لا تقبل أرقاما حسابية كي تصل إلى معادلتها. فالمعادلة تتعلق بالإخلاص والوفاء والالتزام بقضايا الوطن والالتزام بتمثيله بالشكل الحضاري – القائم على مجموعة قيم آمن بها المجتمع.

تستطيع الأسرة أن تعلم افرادها كيف يكونون مواطنين فاعلين ومنتجين .(8) فمن خلال الرموز والمعاني المرسلة يوميا في مسرح الحياة الأسرية ينمو الارتباط الفكري والوجداني بالوطن والذي يمتد ليشمل الارتباط بالأرض والتاريخ والناس وحاضر ومستقبل الوطن .(9) وهو بمثابة شحنة تدفع إلى الحب واللارفض مهما كانت الظروف والأزمات، لأن الوطن كما ورد في لسان العرب هو المنزل الذي يقيم فيه الإنسان، فهو وطنه ومحله ومأواه. وكثيرا ما كانت الأسر في سردياتها المحكية تمجد الوطن على لسان الحيوان والطيور، فالانتماء والحقوق والواجبات والمشاركة المجتمعية مكونات أساسية للمواطنة يتلقاها المتفاعلون الاجتماعيون أثناء اتصالاتهم الأولى داخل الأسر.

فالأسرة هي المدرسة الأولى للطفل، وهي اللبنة الأساية والجذرية لبناء شخصيته. ويقع على الأسرة المسؤولية الكبرى في تقويم سلوك الطفل وأخلاقه، وتوجيهه التوجيه الصحيح إلى كل المعاني والقيم والمثل المعبرة عن الهوية التي تشحن الطفل بشحنات تعينه على معوقات الحياة، وتقويه على رد الهجمات الثقافية في زمن لم يعد ينجو من شيطان المعلوماتية فيه الرهبان في ديرهم.

"فالأسرة هي مستنبت الأبناء فإذا كانت بيئة هذا المستنبت الأسري خصبة ومتوافقة معلوماتيا وخلقيا وسلوكيا، فإن الأبناء مثل أي نبات يلقي العناية المناسبة في أي بيئة زراعية خصبة ينشأون أسوياء منتجين في الفكر والخلق والسلوك (10).

ولا نعني بالأسرة القدوة هنا أن تكون متعلمة بأعلى الشهادات الأكاديمية بل أن تكون سديدة التفكير والتصرفات اليومية، غير متناقضة من موقف لآخر، ولا بين ما تفكر به أو ما تعتقده وما تدعو إليه من

أخلاقيات وما تسلك في الواقع مع الأبناء والآخرين داخل الأسرة وخارجها. وليس المقصود بتربية الأسرة لأفرادها في القرن الواحد والعشرين هو تنشئتهم معاصرين في كل شيء يعتقد به ومتحررين تماما من الماضي وقيم الآباء والأجداد بل توجيههم إلى ما يجعل منهم فاعلين بهويات شخصية غنية بالمعرفة وأقوياء بتحمل المسؤولية وقويمين سلوكيا. فالمشكلة الأكبر التي تواجه مجتمعاتنا وأسرنا هي خلقية بالدرجة الأولى، فالأخلاق والهوية هي أشد ما تحتاجه أسرنا هذه الأيام لنتمكن مجددا من الخروج من كبوتنا الممتدة التي امتدت لأكثر من الف سنة.

فالأسرة كجماعة اتصالية أولية تعني بالتماسك لكونها مصدرا لتكوين الشخصية والانتماء إذ يمكن للوالدين مساعدة أطفالهم لمزيد من التعلم حول الواجبات الوطنية من خلالما يلي:

- تشجيع الأبناء على المشاركة في مشاريع خدمة المجتمع مثل تنظيف المنطقة المجاورة.
- توفير مواد التعلم الوطنية في الكتب الموجودة في المنزل والمجلات والصحف.
- اغتنام كل فرصة لتحويل حلقات الاتصال الأسرية إلى مواضيع حول مقومات المواطنة الصالحة وقص القصص المحفزة على حب الوطن والمقومة لشخصية الطفل والتعريف بالوطن جغرافيا وتاريخيا.
- التعريف بصروح الوطن و ذلك بأخذ الأبناء في جولات تشمل المواقع التاريخية والتراثية والمتاحف في البلاد مع سرد قصة كل منها.

فداخل الأسرة تنمو الدلالات الرمزية للثقافة والأبعاد الرمزية والذات والآخر والشخصية والهوية الثقافية (11).

إن الأسرة قادرة على تعليم أفرادها قيم التعامل مع الآخرين كالتسامح واحترام الأسرة كبيرا وصغيرا وتقدير قيمة الأشياء في البيئة ولياقة التعامل العام، وحسن الاستماع للآخر والاهتمام به واللطف معه ومساعدته وتقدير قيمته.

كما يمكن للأسرة من خلال تفاعلاتها أن تعلم أفرادها سبل المؤازرة والدعم والحماية والدفاع عن أبناء الوطن في السر والعلن ومقاومة الخطأ والإغراءات والابتعاد عن المحسوبية في التعامل.

فالأسرة كما رأى أوجست كونت August conte أساس تكوين المجتمعات، فمنها ينبثق أفراد ويكتسبون معايير وقيم توجه العلاقات الاتصالية. إنها المؤسسة التي تجعل من الطفل حيوانا مدنيا وتزوده بالعواطف والاتجاهات اللازمة في المجتمع وفي البيت.(12)

إنّها على حد تعبير أوغال سان Aurèle st-Yves |تنظيم دينامي فريد يكتسب في مساره مجمل الأنساق المسؤولة عن التصرفات إنها حقيقية اجتماعية ونفسية تضم مجمل الحاجات والاتجاهات والقيم التي تقود أعضاء الأسرة إلى الاختيار والقبول وتحمل الآخرين في أوقات الأزمات أو في أوقات الرخاء.(13)

فبصرف النظر عن أنماط المعيشة (البداوة والفلاحة والحضارة) تكون الاسرة الوسيط بين المجتمع والمؤسسة التي يتوارث فيها الأفراد والجماعات انتماءاتهم الدينية والطبقية وحتى الثقافية والسياسية إلى حد بعيد.(14)

وتتجسد أهمية الأسرة في كونها تمنح القائمين بالاتصال رصيدا من الرموز، والمعاني لأنهم أصلا يتفاعلون معنا ورمزا. فهي تلقنهم أخلاق وقيم ومقاييس ومعتقدات المجتمع الذي يعيشون فيه، فيصبحون قادرين على إقامة علاقات اتصالية تستوفي لبنات عمليات الاتصال (الارسال، الاستقبال، القنواتن المعاني، التبادل، الفهم، التأويل ورجع الصدى).وبالتالي يتواصلون في دروب ديناميكية لا تعرف التوقف عبر حلقية اتصالهم.

فالأسرة من خلال إعدادانا لاقتحام المجتمع الكبير تكسبنا مخزونا ثقافيا اتصاليا عن الأنماط الثقافية الشعبية المقبولة لأنها تعكس وجهات النظر الأخلاقية للجماعة مثل: احترام الجنائز، وتقديس الزواج وتقدير الخيرات وحب الوطن ونبذ زنا المحارم وتقدير الكبير ونظافة المحيط...الخ.

فنحن نعيش داخل نسق مرجعي يتشكل من الطقوس والشعائر المختلفة ونحن مجبرون على التأقلم معها حتى لا نتعرض لأن نقذف خارج رهانات المجتمع الإنساني، فالأسرة اكتسبت سمة الجماعة الاتصالية الأولية لأنها الاطار العام الذي يحدد تصرفات المرسلين والمستقبلين ويشكل حياتهم ويضفي عليهم خصائصه. فالأسرة هي من يبني وعيهم الاجتماعي ويغرس فيهم التراث القومي والحضاري، وهي مصدر العادات والتقاليد والعرف وقواعد السلوك، وهي كلها مكونات عملية بناء المواطن الفاعل التي لن تتحقق دون الاتصال الإنساني وأساليبه المتنوعة التي تورث الثقافة والإطار الدلالي الرمزي وخصائص الأجيال السالفة للأفراد.

المراجع

1 عبد السلام المسدي:العولمة والعولمة المضادة، كتاب سطور،القاهرة، 1999 ص 146.

2 - زكريا عبد العزيز محمد: التلفزيون والقيم الاجتماعية للشباب والمراهقين-القاهرة، مركز الإسكندرية للكتاب، 2002، ص4.

3 - عبد الحميد صبري جاب الله: تطوير التربية للمواطنة في العالم العربي في ضوء الاتجاهات العالمية، مجلة التربية – قطر- اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم عدد 52 مارس 2005 ،ص156.

4 - السيد ياسين: المواطنة و العولمة – القاهرة، 2002، ص04.

5 - السيد ياسين : المواطنة في زمن العولمة- القاهرة، المركز القبطي للدراسات الاجتماعية ،2002، ص23.

6 - Kennedy.k : Citizenship Education and the Modern State, London, Falmer Press, 1997, P 102.

7 - مجلة التربية: مرجع سابق ص 165.

8 – صالحة غابش: المواطنة ليست أرقاما حسابية لتحقيق معادلة ما، مجلة الثقافة التربوية عدد 7، الامارات العربية المتحدة، 2006، ص .139

9 – فاطمة بطي السويدي: أساليب تعزيز الانتماء للوطن في المؤسسات التعليمية، مجلة الثقافة التربوية، مر جع سابق، ص .141

10 – محمد زياد حمدان، تربية الهوية الخلقية للأبناء بالمعرفة والقيم والاستقلال المشترك، مجلة التربية عدد 33 ديسمبر 2004، قطر، ص 136.

11 – السيد حافظ الأسود: الأنثروبولوجيا الرمزية، دراسة مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة وتأويلها، مصر – منشأة المعارف، الإسكندرية 2001، ص 220

12-عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع،القاهرة،دار النهضة،ط1977،7،ص .22

13- Auréle st- yves: la famille sa réalité psychologique,Canada; Ottawa,les editions de la libérté; 1983,p 13.

14-حليم بركات:المجتمع العربي المعاصر، بحث اجتماعي استطلاعي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط3 ،1986،ص 171.